(٤)

« أُتْلُ القرآن الكريم ، واصبر على ملازمة الفقراء ، وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين »

الآيات (٢٧ ـ ٣١)

وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ
رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

ملتحدا : موئلا وملجأ[١] والملتحد إنّما هو المفتعل من اللّحد. يقال منه : لحدت إلى كذا إذا ملت إليه. ومنه قيل للّحد لحد لأنّه فى ناحيةٍ من القبر وليس بالشّقّ الّذى فى وسطه. ومنه الإلحاد فى الدّين وهو المعاندة بالعدول عنه والتّرك له[٢] اللّام والحاء والدّال أصلٌ يدلّ على ميلٍ عن استقامة. والملتحد : الملجأ، سمّي بذلك لأنّ اللّاجىء يميل إليه[٣].

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أصلاً، كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة تبعاً، بأن يتلو ما أوحى الله تعالى إليه من كتاب ربّه جلّ وعلا، وأن يفهم معانيه، ويطبّق تعاليمه، ويمتثل لأحكامه. إنّه لا مبدّل لكلمات الله تعالى ولا مغيّر لأى شىءٍ يتعلّق بالقرآن الكريم، من حيث اللّفظ والمعنى. إنّ الله تعالى تكفلّ بحفظ هذا الكتاب العزيز إلى يوم الدّين، وإنّ الله تعالى تكفّل لمن اتّبع القرآن الكريم، الّذى تبيّنه سنّة المصطفى ﷺ، ألاّ يضلّ فى الدّنيا ولا يشقى فى الآخرة. أمّا الضّالّ والشّقيّ فإنّه الذى يُعْرض عن القرآن الكريم وعن سنّة خير الأنام ﷺ. إنّ هؤلاء الّذين يميلون عن الصّراط المستقيم يبحثون لهم عند غير الله تعالى ملجأً وموئلاً لن يجدوا سوى الضّلال والشّقاء.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٣.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٣.
(٣) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : «لحد» ٥/ ٢٣٦ ولسان العرب : «لحد».

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

واصبر نفسك : الصّبر الإمساك فى ضيق. يقال : صَبَرْت الدّابّة حبستُها بلا عَلَف[١] وصَبَرْت نفسى على ذلك الأمر أي حبستها[٢] .

بالغداة والعشيّ : الغُدْوة والغداة من أوّل النّهار[٣] والعشيّ من زوال الشّمس إلى الصّباح. قال[٤] : ﴿إلاّ عشيّةً أوضحاها﴾[٥] وقوبل فى القرآن الغدوّ بالآصال نحو قوله[٦] : ﴿بالغدوّ والآصال﴾ وقوبل الغداة بالعشيّ. قال: ﴿بالغداة والعشيّ﴾[٧] .

ولا تعد عيناك عنهم : يقول جلّ ثناؤه لنبيّه ﷺ : ولا تصرف عيناك عن هؤلاء الّذين أمرتك يا محمّد أن تصبر نفسك معهم إلى غيرهم من الكفار ولا تجاوزهم إليه. وأصله من قولهم : عدوت ذلك فأنا أعدوه إذا جاوزته[٨] .

وكان أمره فرطا : أي إسرافاً وتضييعا[٩] .

سبب النّزول

يقال إنّ الآية الكريمة نزلت فى أشراف قريش حين طلبوا من النّبيّ ﷺ أن يجلس معهم وحده ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمّار وصهيب

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «صبر» ٢٧٣.
(٢) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : «صبر» ٣/ ٣٢٩.
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «غدا» ٣٥٨.
(٤) سورة النّازعات ٤٦.
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «عشا» ٣٣٥.
(٦) سورة الرّعد ١٥.
(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «غدا» ٣٥٨.
(٨) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٥.
(٩) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «فرط» ٣٧٧.

وخبّاب[1] وابن مسعود ، وليفرد أولئك بمجلسٍ على حدة فنهاه الله عن ذلك[2] .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يَصبرَ نفسه ويحبسها مع فقراء المؤمنين الّذين يدعون ربّهم جلّ وعلا بالغداة والعشيّ، النّهار واللّيل، سراً وعلانيةً، يريدون وجهه جلّ وعلا .

وبعد أمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ بأن يبقى مع فقراء المؤمنين، تنهاه عليه الصّلاة والسّلام أن تتجاوز عيناه عنهم، وأن يتخطّاهم ببصره، زهداً فيهم لفقرهم، ورغبةً في زينة الحياة الدّنيا الّتي يمثلها أغنياء المشركين.

وبعد نهي الآية الكريمة المصطفى ﷺ عن الرّغبة عن فقراء المؤمنين إلى أغنياء الكافرين، تعمّق الآية الكريمة هذا المعنى فتنهاه عليه الصّلاة والسّلام عن طاعة من أغفل الله تعالى قلبه عن ذكره جلّ وعلا، وصرف قلبه عن القرآن الكريم، واتّبع هواه الّذي قاده إلى مهاوي الرّدى، وكان أمره ضياعا، ومصيره هلاكا[3] .

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

وقل الحقّ من ربّكم : وقل يامحمّد للنّاس[4] هذا القرآن[5] الّذي جئتكم به من ربّكم هو الحقّ الّذي لا مرية فيه ولا شكّ[6] .

---

(١) خبّاب على وزن شدّاد وهو خبّاب بن الأرتّ . القاموس المحيط «خبب».
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٠ وأسباب النّزول للواحدي النّيسابوري ٣٤٤و٣٤٥.
(٣) انظر تفسير الطّبري ١٥/ ١٥٦.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٨١.
(٥) الجلالين.
(٦) تفسير ابن كثير ٣/ ٨١.

فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر : هو تهديدٌ ووعيد[١] .

إنّا أعتدنا : إنّا أعددنا[٢] وأرصدنا[٣] .

أحاط بهم سرادقها : السُّرادق : ما أحاط بالبناء[٤] يقول : أحاط سرادق النّار الّتى أعدّها الله للكافرين بربّهم. وذلك فما قيل حائطٌ من نار يُطيف بهم كسرادق الفسطاط[٥] والفُسْطاط، بضمّ الفاء، بيتٌ يُتَّخَذُ من الشَّعَر[٦] .

كالمُهْل : كلّ مَعْدِنٍ مذاب كالذّهب والفضّة والحديد والنُّحاس والرَّصاص، وكلّ شيءٍ انتهى حرّه كالمعدن المذاب ودُرْديّ الزّيت، وهو ما يَبْقَى أسفله[٧] والقيح والدّم الأسود، وإنّ ما أوقدت عليه النّار حتّى صار كدرديّ الزّيت فقد انتهى أيضاً حرّه[٨] .

وساءت مرتفقا : المرتفق فى كلام العرب المتّكأ، يقال منه : ارتفقت إذا اتّكأت[٩] وبات فلانٌ مرتفقا أي متّكئاً على مِرْفَق يده، والمِرْفِق والمَرْفِق مَوْصل الذّراع فى العضد[١٠] قال أبو ذؤيب الهذليّ :

نام الخليّ وبتّ اللّيل مرتفقاً ## كأنّ عيني فيها الصّاب مذبوح[١١]

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول للنّاس : هذا القرآن الكريم الموحى إليّ هو الحقّ من ربّكم جلّ وعلا. ولمّا كانت الحجّة قد قامت على النّاس، فقد أرسل الله تعالى رسوله ﷺ ، وأنزل عليه كتابه العزيز، وقد بلّغ الرّسول ﷺ

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٧.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٧.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٨١.
(٤) لسان العرب : «سردق».
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٧.
(٦) المعجم الوسيط : «الفُسْطاط».
(٧) القاموس المحيط : «الدّرد».
(٨) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٨.
(٩) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٩.
(١٠) لسان العرب: «رفق».
(١١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٩ والصّاب شجرٌ له عصارةٌ بيضاء كاللّبن بالغة المرارة إذا أصابت العين أتلفتها.

الرّسالة وأدّى الأمـانة وكان لقومـه النّاصح الأمين ، فإنّ الآية الكريمة فى مـعرض التّهديد والوعيد تقول للكافـرين : من شاء منكم فليؤمن ومن شاء فليكفر فإنّ كلّ واحدٍ مسـئولٌ وحده عمّـا أتى من قولٍ أو فعل. أمّا الظّالمون المصـرّون على الكفر حتّى توفّاهم الله تعالى فقد أعـدّ جلّ وعلا لهم ناراً تحيط بهم إحاطة الحائط بالدّار والسّور بالفناء. وإن يطلب أولئك الكافـرون الغوث فى جهنّم يغاثـوا بماءٍ كالمعدن المذاب يشوى الوجوه لشدّة حرّه حينما يدنو من الوجوه فكيف يستسيغه شاربه. إنّ ذلك الماء الشّديد الحرارة بئس الشّراب . وإنّ جهنّم ساءت مستـقراً ومقاماً، مرتفقاً ومتّكئا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ
فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

جنّات عَدْن : بساتين إقامة(١) .

يحلّون فيها : يلبسون فيها من الحلي(٢) .

من أساور : الأسـاور جمع الأُسوار، بضمّ الهمـزة، حليةٌ كالطّوق تلبـسه المرأة فى زندها أو معصمها(٣) .

من سندسٍ وإسـتبـرق : السّندس جمع واحـدها سندسة، وهي مـارقّ من

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٩

(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٩

(٣) انظر القاموس المحيط : «سور» ومفردات الرّاغب الأصفهانى : «سور» ٢٤٧.

الدّيباج، والإستبرق ما غلظ منه وثخن، وقيل إن الإستبرق هو الحرير[١].

متكئين : الاتّكاء قيل الاضطجاع[٢] والميل على أحد الشّقّين[٣] وقيل التّربّع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد ههنا. ومنه الحديث الصّحيح : أمّا أنا فلا آكل متّكئاً. فيه القولان[٤].

على الأرائك : قال المفسّرون : الأرائك السّرر في الحجال[٥] والحجال جمع الحَجَلة. والحَجَلَة : مثل القبّة. وحَجَلةُ العروس : بيتٌ يزيّن بالثّياب والأسرّة والسّتور[٦] وقال الزّجّاج : الأرائك الفرش في الحِجال. وقيل : هي الأسرّة، وهي في الحقيقة الفُرُش، كانت في الحجال أو في غير الحِجال. وقيل : الأريكة سريرٌ منجّدٌ مزيّنٌ في قبّةٍ أو بيت، فإذا لم يكن فيه سريرٌ فهو حَجَلة[٧].

بعد الحديث عن الكافرين الظّالمين وعقابهم يتمّ الحديث عن المؤمنين المتّقين وثوابهم. إن الله سبحانه وتعالى الّذي لم يترك عقاب الّذي أساء العمل لم يترك ثواب الّذي أحسن العمل. إنّ الّذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصّالحات بجوارحهم، أولئك لهم جنّات إقامةٍ دائمة، تجري من تحتهم أنهار الماء واللّبن والخمر والعسل، يحلّون فيها من أساور من ذهبٍ تزيّن أيديهم، ويلبسون ثياباً خضراً، من رقيق الدّيباج وما غَلُظ منه، متّكئين فيها ومضطجعين على الأسرّة المزيّنة بالفُرُش في القباب والبيوت. نِعْمَ ذلك الثّواب، وحَسُنت الجنّة متّكئاً ومرتَفَقا، مستقراً ومقيلا.

---

(١) تفسير الطّبري ١٥/ ١٥٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٢.
(٣) لسان العرب : «وكأ».
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٢ وانظر لسان العرب : «وكأ».
(٥) لسان العرب : «أرك».
(٦) لسان العرب : «حجل».
(٧) لسان العرب : «أرك».

(٥)

« الهــلاك يحيط بجنّــة الكــافر الفَـرِح المختــال الفخور »

الآيات (٣٢ـ٤٤)

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾

واضرب : واجعل[١] يا محمّد[٢] .

لهم مثلاً : لهؤلاء المشركين بالله الّذين سألوك أن تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه مثلاً مثل رجلين[٣] .

جنّتين من أعناب : بستانين من كروم[٤] .

وحففناهما بنخل : وأطفنا هذين البستانين بنخل[٥] .

وجعلنا بينهما زرعا : وجعلنا وسط هذين البستانين زرعا[٦] والزّرع فى الأصل مصدر وعُبِّرَ به عن المزروع[٧] .

واضرب يا محمّد للمشركين الّذين طلبوا منك أن تطرد المؤمنين بسبب فقرهم وتُدْنِيَ المشركين بسبب غناهم مثل رجلين مؤمنٍ ومشرك، جعلنا لأحدهما المشرك، دليلاً على هوان الدّنيا على الله تعالى، حديقتين من أعناب وأحطناهما بنخل. والمعروف أنّ النّخيل والكروم أكرم النّبات عند العرب، يدلّ على ذلك الأصل اللّغويّ الّذى اشتقّ منه كلٌّ من اللّفظين. النّون والخاء واللّام : كلمةٌ تدل على انتقاء الشّىء واختياره. والنّخل سمّي بذلك لأنّه أشرف كلّ شجرٍ

(١) الجلالين.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٠.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٠.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٠.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٠.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٠.
(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «زرع» ٢١٢.

ذى ساق[1] والكاف والرّاء والميم أصلٌ صحيحٌ يدلّ على شرفٍ فى الشّىء فى نفسه أو شرف فى خلقٍ من الأخلاق. يقالّ : رجلٌ كريم، وفرسٌ كريم، ونباتٌ كريم[2] وكلّ شىءٍ شَرُف فى بابه فإنّه يوصف بالكرم[3] جاء فى اللّسان[4] : «يُسَمَّى الكَرْم كَرْماً لأنّ الخمر المتّخذة منه تحثّ على السّخاء والكرم وتأمر بمكارم الأخلاق، فاشتقّوا له اسماً من الكَرَم للكَرَم الّذى يتولّد منه».

وقد جعل الله سبحانه وتعالى وسط هاتين الحديقتين زرعاً. وعُبّر بالزّرع عن المزروع. ونتذكّر بهذه المناسبة قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الواقعة[5] : ﴿أفرأيتم ماتحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزّارعون﴾.

وهكذا نكون أمام لوحةٍ رائعة لهاتين الحديقتين. إنّهما محاطتان بالنّخيل. وإنّ عمادهما الأعناب المعروشات. وإنّ وسطهما وبينهما الزّروع غير المعروشات. ونستطيع أن نفهم التّدرّج فى ارتفاع هذه الأنواع الثّلاثة من النّبات. أعلاها النّخيل. وأوسطها الأعناب المعروشات. وأدناها الزّروع غير المعروشات. والله أعلم.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس : «نخل» ٥/ ٤٠٧.
(٢) انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس : «كرم» ٥/ ١٧١.
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «كرم» ٤٢٩.
(٤) «كـــرم».
(٥) الآيتان ٦٣و٦٤.

كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ
تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

آتت أكلها : أخرجت ثمرها[1] .

ولم تظلم منه شيئا : ولم تنقص من الأُكُلُ شيئا[2] .

وكان له ثمر : وكان له من هذه الكروم والنّخل والزّرع ثمر[3] .

وهو يحاوره : أي يجادله ويخاصمه[4] .

وأعزّ نفراً : وأعزّ عشيرةً ورهطا[5] .

كلتا الحديقتين أخرجت ثمرها ولم تنقص منه شيئا. وفجّر الله تعالى خلال الجنّتين نهراً يتدفّق فى أرجائهما ويجرى فى أنحائهما . وكان له من النّخل والشّجر والكرم والزّرع وسائر النبات ثمر. ونستطيع أن نفهم أنّ من هذا الثّمر ما يؤكل وما يُدَّخر وما يُباع. وبدلاً من أن يشكر هذا الجاحد لله تعالى نعمه وآلاءه، ويقوم بما يجب عليه من مقابلةٍ للإحسان بالإحسان، هو يتّسم بالجحود والكفران. إنّه يتعالى على صاحبه المؤمن ويفتخر عليه وهو يحاوره ويخاطبه فيقول : أنا أكثر منك مالاً وثراءً، وأعزّ عشيرةً ورهطا، كأنّ له فضلاً فى ذلك، وكأنّ الفضل ليس كلُّه لله تعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٣.

(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٠.

(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦١.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٣.

(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦١.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

ودخل جنّته : بستانه[1] .

وهو ظالم لنفسه : ظلمه نفسه كفره بالبعث وشكّه فى قيام السّاعة ونسيانه المعاد إلى الله تعالى[2] .

ما أظنّ أن تبيد هذه أبدا : لا تفنى ولا تخرب [3].

وما أظنّ السّاعة قائمة : وما أظنّ السّاعة الّتى وعد الله خلقه الحشر فيها تقوم فتحدث[4] .

ولئن رددت إلى ربّى : تمنّى أمنيةً أخرى على شكٍّ منه فقال : ولئن رددت إلى ربّى فرجعت إليه، وهو غير موقنٍ أنّه راجعٌ إليه[5] .

لأجدنّ خيرا منها منقلبا : لأجدنّ خيراً من جنّتى هذه عند الله إن رددت إليه مرجعاً ومردّا. يقول : لم يعطنى هذه الجنّة فى الدّنيا إلاّ ولي عنده أفضل منها فى المعاد إن رددت إليه[6] .

دخل ذلك المفتون بجنّتيه، مع صاحبه المؤمن، إحدى الجنّتين أو كلتيهما، وهو ظالمٌ لنفسه، بسبب كفرانه وإشراكه الأسباب مع الله تعالى ، وقال مختالاً

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦١.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦١.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦١.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦١.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦١.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦١.

بنفسه بعد أن كان فخوراً بهـا فى الآية الكريمة السّابقة : ما أظنّ أن تبيد هذه الجنّة أبداً وتفنى مطلقاً، لأنّ كلّ العـوامل الّتى تكفل للحديقة البقاء مـتوافرة ، من تربة جيّدة، وماء متدفّق، وموقع متميّـز، وظروف مواتية. وقد دفع المخبولَ سَفَهُهُ إلى إعلان شكّه فى قيام السّاعة وترجيحه الظّنّ بأنّ الحياة الدّنيا نهاية المطاف، فلا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء. وانتـهى الحُمْق بصاحب الجنّة إلى أحطّ الدّركات فلم يستحي من القول إنّه لو ردّ إلى الله تعالى يوم القيامة فإنّه سوف يجد عند الله تعالى خيـراً من جنّته فى الدّنيا منقَلَبـاً ومَرْجعاً. وما البـاعث لذلك الأحمق على هذا الفهم والمعنى؟ البـاعث له ما أكرمه الله تعـالى به فى الدّنيا من جنّة بل جنّتين دليلاً - فى وهمه - على رفيع منزلتـه عند بارئه جلّ وعلا. فإذا رجع إلى بارئه يوم القيامة كانت له المنزلة الأرفع، والثّواب الأوسع.

ومن البيّن أنّ صاحب الجنّة ليس عنده من المبرّرات لحـسن ظنّه سوى حمقه الّذى ليس له حـدود، لأنّ الثّـواب لا يكون إلاّ على حسن الـعمل، وعلى قـدر المشقّة يكون حسن الجزاء، بعد تفضّل الله تعـالى بقبول الأعمال الصّالحة الّتى أريد بها وجهه الكريم جلّ وعلا.

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ
أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾

وهو يحاوره : وهو يخاطبه(١) .

أكفرت بالّذى خلقك من تراب : يعنى خلق أباك آدم من تراب(٢).

ثمّ من نطفة : ثمّ أنشأك من نطفة الرّجل والمرأة (٣).

---

(١) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٢.

(٢) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٢.

(٣) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٢.

ثمّ سواك رجلا : ثمّ عَدَلك بشراً سويّاً رجلاً ذكراً لا أنثى[1] .

لكنّا هو الله ربّى : لكن حرف استدراك ساكن النّون . أنا ، ضمير منفصل مبتدأ فى محلّ رفع . هو : ضمير الشّأن مبنيّ فى محلّ رفع مبتدأ ثان . الله : لفظ الجلالة مبتدأ ثالث مرفوع . ربّى : خبر المبتدأ الله مرفوع وعلامة الرّفع الضمّة المقدّرة على ماقبل الياء . والياء : مضافٌ إليه[2] معناه أنّه يقول : ولكن أنا أقول هو الله ربّى ولا أشرك بربّى أحدا[3] وقراءة عامّة قرّاء أهل العراق : لكنّ هو الله ربّى ، بتشديد النّون وحذف الألف فى حال الوصل ، كما يقال : أنا قائم ، فتحذف الألف من أنا . وأمّا فى الوقف فإنّ القرأة كلّها تثبت فيها الألف ، لأنّ النّون إنّما شددّت لاندغام النّون من لكن وهي ساكنة ، فى النّون الّتى من أنا إذ سقطت الهمزة الّتى فى أنا . فإذا وقف عليها ظهرت الألف الّتى فى أنا فقيل : لكنّا ، لأنه يقال فى الوقف على أنا بإثبات الألف لا بإسقاطها[4] .

قال الصّاحب المؤمن الفقير الأقلّ مالاً وولداً وهو يحاور صاحبه الغنيّ ويخاطبه فى اسلوب الإنكار : أكفرت بالله تعالى الّذى خلقك أصلاً من ترابٍ فى هيئة أبيك آدم عليه السّلام الّذى خلقه الله تعالى من طينٍ لازب ، ثمّ خلقك من نطفة أبويك ، ماء أبيك الّذى يخرج من صلبه ، وماء أمّك الّذى يخرج من ترائبها ، أي ضلوع صدرها ، الواحدة تَريبة[5] ثمّ سوّاك رجلاً لا أنثى ، وجعلك كامل الخلق تامّ الهيئة حسن الصّورة!

لكن أنا أقول بملء فيّ وعلى رءوس الأشهاد : هو الله ربّى لا إله إلاّ هو ولا أشرك بربّى أحدا .

---

(١) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٢ .

(٢) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ١٥٣ .

(٣) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٢ .

(٤) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٢ .

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «ترب» ٧٤ جاء فى سورة الطّارق الآيات (٥ـ٧) : ﴿فلينظر الإنسان مِمّ خُلِق. خُلِق من ماءٍ دافق. يخرج من بين الصُّلب والتّرائب﴾.

وَلَوْلَآ إِذْ
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠
أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا
زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

ولولا : الواو عاطفة. لولا . حرف تحضيضٍ للتّوبيخ [1] بمعنى : هلاّ [2] .

إذ دخلت جنّتَك قلت ما شاء الله لا قـوّة إلاّ بالله : يقول عزّ ذكره : وهلاّ إذ دخلت بستانك فأعجبك ما رأيت منه قلت ما شاء الله كان [3] أو : هذا ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله [4] أو : هو مـا شاء الله [5] وعلى الرّأي الأوّل عند الطّبـرى ما اسم شرطٍ جازمٍ مبنيّ [6] وعلى الرّأي الآخر ما اسم موصول خـبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا، أو هو، أو الأمر [7] ولهذا قال بعض السلف : من أعـجبه شيءٌ من حاله أو مـاله أو ولده فليقل ما شـاء الله لا قوّة إلا بالله. وهذا مـأخوذٌ مـن هذه الآية الكريمة [8] .

---

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ١٥٣.
(٢) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٢ وتفسير ابن كثير ٣/ ٨٤ والجلالين.
(٣) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٢.
(٤) الجـــــــلالين.
(٥) انظر تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٢.
(٦) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ١٥٣.
(٧) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ١٥٣.
(٨) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٤ وانظر تخريج الحديث فى هذا المعنى والآراء فى درجته.

ويرسل عليها حسبانا : عن ابن عبّاس : الحُسْبان العذاب[1] يقال : حَسَبْتُ أَحْسِبُ حساباً وحُسْبانا. قال تعالى[2] : ﴿ولتعلموا عدد السّنين والحساب﴾ وقال تعالى[3] : ﴿وجاعل اللّيل سكناً والشمس والقمر حُسْباناً﴾ وقيل لا يعلم حُسْبانه إلاّ الله. وقال عزّ وجلّ : ﴿ويرسل عليها حُسْباناً من السّماء﴾ قيل ناراً وعذاباً. وإنّما هو فى الحقيقة ما يُحاسَبُ عليه فيجازى بحَسَبه. وفى الحديث أنّه قال ﷺ فى الرّيح : اللّهم لا تجعلها عذاباً ولا حُسْباناً[4].

فتصبح صعيداً . الصّعيد يقال لوجه الأرض[5] .

زلقا : أرضاً ملساء لا يثبت عليها قدم[6] .

أو يصبح ماؤها غوراً : أو يصبح ماؤها غائراً. فوضع الغور وهو مصدر مكان الغائر. والعرب توحّد الغور مع الجمع والاثنين وتذكّر مع المذكّر والمؤنّث، تقول : ماءٌ غور وماءان غور ومياه غور. ويعنى بقوله غوراً : ذاهباً قد غار فى الأرض فذهب فلا تلحقه الرِّشاء[7].

يواصل الصاحب الفقير المؤمن قوله لصاحب الجنّتين المستكبر المشرك فيحضّه، إذ دخل جنّته فأعجبته، على أن يقول : هذا ما شاء الله تعالى، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

ولمّا كان الغنيّ المختال الفخور قد تعالى على صاحبه بأنّه أكثر منه مالاً وولداً، فإنّ الفقير المؤمن لا ينكر هذه الحقيقة ولكنّه ينكر على صاحبه الغنيّ كبره المقيت وفخره البغيض بدلاً من أن يشكر لله تعالى فضله العظيم عليه. إنّ الفقير المؤمن يقول للغنيّ الكافر : إن ترن أنا أقلّ منك مالاً ونَشَبا، ولداً وعشيرة، فعسى ربّى جلّ وعلا أن يؤتينى من فضله، فى الدّنيا والآخرة، خيراً من جنّتك، الّتى

(١) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٣.
(٢) سورة الإسراء ١٢.
(٣) سورة الأنعام ٩٦.
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حسب» ١١٦.
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «صعد» ٢٨٠.
(٦) الجلالين و تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٣.
(٧) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٣.

يرسل الله تعالى عليها عذاباً من السّماء حساباً لك على كفرك وفخرك واختيالك، فتصبح الجنّة تراباً، وأرضاً ملساء لا يثبت عليها قدم. أو يصبح ماء الجنّة غائراً بإذن الله تعالى، فلن تستطيع له طلباً فلا تلحقه الرِّشاء والدّلاء.

ومن البيّن أنّ الحسبان من السّماء عذابٌ من خارج الجنّة، وأنّ غور الماء فى أعماق الأرض واتّجاهه إلى باطنها عذابٌ من داخل الجنّة. إنّ الله سبحانه وتعالى قادرٌ على هذا وذاك، فلا يعجز الله تعالى شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

وأحيط بثمره : الحاء والواو والطّاء كلمةٌ واحدة، وهو الشّىء يُطيف بالشّىء[1] والحائط الجدار الّذى يحوط بالمكان. والإحاطة تقال فى الأجسام نحو أحطت بمكان كذا[2] يقول تعالى ذكره : وأحاط الهلاك والجوائح بثمره، وهي صنوف ثمار جنّته الّتى كان يقول لها : ما أظنّ أن تبيد هذه أبدا[3].

فأصبح يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها : فأصبح هذا الكافر صاحب هاتين الجنّتين يقلّب كفّيه ظهراً لبطنٍ تلهّفاً وأسفاً على ذهاب نفقته الّتى أنفق فى جنّته[4] عن قتادة : ﴿فأصبح يقلّب كفّيه﴾ أي يصفّق كفّيه[5].

---

(١) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : «حوط» ٢/ ١٢٠.
(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حائط» ١٣٦.
(٣) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٣.
(٤) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٣.
(٥) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٣.

وهي خاويةٌ على عروشها : يقول : وهي خاليةٌ على نباتها وبيوتها[1] وأصل الخواء الخلو. يقال : خوت الدّار وخَوِيَتْ تَخْوَى خواءً (ممدود) وخُوِيّاً : أقوت، وكذلك إذا سقطت، ومنه قوله تعالى[2] : ﴿فتلك بيوتهم خاويةً بما ظلموا﴾، أي خالية. ويقال ساقطة، كما يقال[3] : ﴿فهي خاويةٌ على عروشها﴾، أي ساقطةٌ على سُقُفها. والخَواء الجوع لخلوّ البطن من الغذاء[4] والعروش جمع العريش[5] والعريش : سقف البيت، وكلّ ما يتهيّأ ليُظلّ أو يُكنّ فهو عريش. ومنه : عريش الدّالية، ومنه قوله تعالى[6] : ﴿وممّا يَعْرِشون﴾[7].

ولم تكن له فئة : جماعة[8] وعشيرة[9] وجند[10].

هنالك الولاية : بفتح الواو، ومعنى ذلك : هنالك الموالاة لله، كقول الله[11] : ﴿الله وليّ الّذين آمنوا﴾ وكقوله[12] : ﴿ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا﴾ يذهبون بها إلى الولاية فى الدّين[13] بمعنى النُّصرة هنالك أي يوم القيامة[14] أي هنالك كلّ أحد مؤمنٍ أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع

---

(١) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٣.
(٢) سورة النمل ٥٢.
(٣) سورة الحج ٤٥.
(٤) تفسير القرطبى ١٠٩٨.
(٥) القاموس المحيط : «عرش».
(٦) سورة النّحل ٦٨.
(٧) تفسير القرطبى ١٠٩٨.
(٨) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٣.
(٩) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٤.
(١٠) تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٤.
(١١) سورة البقرة ٢٥٧.
(١٢) سورة محمّد ﷺ ١١.
(١٣) انظر تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٤.
(١٤) انظر تفسير الطبرى ١٥/ ١٦٤ والجلالين.

له إذا وقع العذاب، كقوله[1] : ﴿فلمّا رأوا بأسنا قالوا آمنّا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين﴾[2] .

وخيرٌ عُقْبا : وخيرٌ عاقبة[3] والعُقْب والعُقْبَى يختصّان بالثّواب[4] .

وأحاطت الجوائح بإذن الله تعالى بثمر صاحب الجنّتين، ذلك الثّمر الّذى قال الحقّ جلّ وعلا فيه : ﴿وكان له ثمر﴾ وحينما تحيط الجوائح بالثّمر فذلك معناه إحاطتها بالجنّة الّتى جاء على لسان صاحبها عنها قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ما أظنّ أن تبيد هذه أبدا﴾ فأصبح صاحب الجنّة يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها، ويضرب كفّاً على كفّ حسرةً على ذهاب جنّته وندامةً على ذهاب ثمره. وها هي ذى الجنّة خاويةٌ على عروشها خاليةٌ على كرومها وأعنابها الّتى هي عماد الجنّة والّتى قال الحقّ جلّ وعلا فى شأنها : ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنّتين من أعناب﴾ وها هو ذا الكافر المشرك يقول يا ليتنى لم أشرك بربّى جلّ وعلا أحداً من خلقه.

ولم تكن لذلك الكافر الخاسر فئةٌ ينصرونه من دون الله تعالى وعشيرة، وما كان منتصراً بذاته، وما أكثر وقاحته وأشدّ تبجّحه من ذى قبل.

هنالك ، فى الأولى والآخرة، الوَلاية لله تعالى الحقّ الكريم، والنُّصرة لربّ العرش العظيم، والرّجوع والخضوع وإذعان جميع الخلق لله تعالى العالمين. إنّه جلّ وعلا خير من يثيب، وخير من تكون لديه عاقبة هذه الدّار، وعقبى الحياة الدّنيا ، الّتى تتجلّى أشهى ثمارها اليانعة يوم القيامة فى الجنّة الّتى فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) سورة غافر ٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٤

(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٤ والجلالين وتفسير ابن كثير ٣/ ٨٥.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «عقب» ٣٤٠.

(٦)

« الدّنيا فانية ، والآخرة باقية ، فينبغى عمل الصّالحات رجاء حسن الثّواب ، والنّجاة من العذاب »

الآيات (٤٥-٥٩)

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

وجه الشّبه كبيرٌ بين هذه الآية الكريمة من سورة الكهف وهذه الآية الكريمة من سورة يونس[1] قال عزّ من قائل : ﴿إنّما مثل الحياة الدّنيا كماء أنزلناه من السّماء فاختلط به نبات الأرض ممّا يأكل النّاس والأنعام حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس. كذلك نفصّل الآيات لقومٍ يتفكّرون﴾ ومن البيّن أنّ معاني آية سورة الكهف تتضمّنها آية سورة يونس وتزيدها تفصيلاً وتوضيحاً، وبناءً على ذلك يكون الوقوف على معنى آية سورة يونس وقوفاً ضمنيّاً على معنى آية سورة الكهف. وسبق لنا أن وقفنا على معنى آية سورة يونس[2].

ومعنى آية سورة يونس : إنّما مثل الحياة الدّنيا وصفتها فى سرعة تقضّيها وفنائها كمثل ماءٍ أنزله الله تعالى من السّماء فاختلط بسببه نبات الأرض وتداخل بعضه فى بعضٍ وتشابك. وهذا النّبات ممّا يأكل النّاس من بُرٍّ وذُرةٍ وغيرهما، وممّا تأكل الأنعام من كلأٍ وعُشْبٍ ونحوهما. ويلحق بهذين النّوعين من النّبات ذلك النّوع الّذى يُتّخذ زينةً للأرض، ومتاعاً للعين، وبهجةً للنّفس، وهو نوعٌ تأكله الأنعام، كلّه أو جلّه، ويصحّ للإنسان أن يأكل بعضه. حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها المصطنع المزوّق بفعل الإنسان، وتزيّنت الأرض ذاتها، وارتدت أجمل ثيابها، وتقلّدت أحلى أزهارها، وتعطّرت بأطيب ورودها ورياحينها، وظنّ أهلها الّذين ملكت عليهم شغاف قلوبهم أنّهم قادرون عليها، وأنّها طوع بنانهم ورهن

---

(١) الآية ٢٤.

(٢) الجزء ١١ من سلسلة التّفسير البسيط ١٦٧و١٦٨.

إشارتهم، والّذين شُغِلوا بها عن الآخرة، وفُتِنوا بها عن نعيم الجنّة المقيم، أتاها أمرنا بالهلاك، وقضاؤنا بالدّمار، ليلاً أو نهاراً، فجعلنا الأرض الّتى كانت بهجة النّفس ومتعة العين، كأنّما حصدت بالمنجل حصداً، وجعلنا تلك الزّروع والنّبات كأنّها لم تكن قائمة بالأمس أصلاً. وهكذا يفصّل الله تعالى الآيات لقومٍ يتفكّرون ويتدبّرون.

ومعنى آية سورة الكهف الكريمة : واضرب يا محمّد لكفّار مكّة الّذين طلبوا منك أن تطرد فقراء المؤمنين وتدنيهم مثل الحياة الدّنيا وصفتها وشَبَهَها[1] كمثل ماء أنزلناه من السّماء فاختلط بسببه نبات الأرض وتداخل بعضه فى بعضٍ وتشابك ثمّ انقطع الماء وجفّ النّبات فأصبح هشيماً يابساً متفتّتاً [2]تذروه الرّياح وتطيره، يفرّقه الهواء ويبعثره[3] وكان الله تعالى دائماً وأبداً على كلّ شيءٍ مقتدراً، ومن مظاهر قدرته تحويل الجنان النّضرة إلى أراضٍ جُرْد، ومن تلك الجنان جنّة الكافر الغنيّ الفاجر الّذى ظنّ أنّ جنّته لن تبيد أبداً، ولن تهلك مطلقا.

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ المال والبنين هما زينة الحياة الدّنيا. وسبق أن جاء خطاباً للمصطفى ﷺ فى الآية الكريمة الثّامنة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿واصبر نفسك مع الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدّنيا﴾ كما تقرّر الآية الكريمة أنّ الباقيات الصّالحات ، وهي الأعمال الصّالحات، وفى مقدّمتها الصّلوات الخمس كما روي عن ابن عبّاس

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٤.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٤.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٤.

رضي الله عنهما[1] وقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، كما روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أيضاً [2]وزاد بعضهم : ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله[3] تقرّر الآية الكريمة أنّ الباقيات الصّالحات، بالمعنى الّذى تبيّن، خيرٌ عند ربّك يا محمّد ويا أيّها المسلم لله ربّ العالمين ثواباً وجزاءً، وخيرٌ أملاً فى فضل الله تعالى ورجاءً فى المزيد من فضله جلّ وعلا.

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى
الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا
عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ
أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا
حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

ويوم نسيّر الجبال : واذكر[4] يوم نسيّر الجبال عن الأرض فنبسّها بسّاً ونجعلها هباءً منبثّاً[5].

---

(١) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٥. وتفسير ابن كثير ٣/ ٨٥.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٦ وتفسير ابن كثير ٣/ ٨٥.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٦ و١٦٧ وتفسير ابن كثير ٣/ ٨٥ـ٨٧.
(٤) الجلالين.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٧.

وترى الأرض بارزةَ : ظاهرة. وظهورها لرأي أعين النّاظرين من غير شيءٍ يسترها من جبلٍ ولا شجر هو بروزها[١].

وعرضوا على ربّك صفّا : يحتمل أن يكون المراد أنّ جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفّاً واحداً، كما قال تعالى[٢] : ﴿يوم يقوم الرّوح والملائكة صفّاً لا يتكلّمون إلاّ من أذن له الرّحمن وقال صوابا﴾ ويحتمل أنّهم يقومون صفوفاً صفوفاً، كما قال[٣] : ﴿وجاء ربّك والملك صفّاً صفّا﴾[٤] .

لقد جئتمونا كما خلقناكم أوّل مرّة : لقد جئتمونا أيّها النّاس أحياء كهيئتكم حين خلقناكم أوّل مرّة[٥] أي فرادى حفاةً عراةً غُرْلا[٦] والغُرْل : جمع الأغرل. والأغرل الأقلف[٧] والغُرْله : جلدة الصّبيّ الّتى تُقْطع فى الختان[٨] والغُرْله : القُلْفَة[٩]

بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا : بل زعمتم أن لن نجعل لكم البعث بعد الممات والحشر إلى القيامة موعدا [١٠].

ووضع الكتاب : ووضع الله يومئذٍ كتاب أعمال عباده فى أيديهم فأخذ واحد بيمينه وأخذ واحدٌ بشماله[١١] .

ويقولون يا ويلتنا : يا للتّنبيه، ويلتنا هلكتنا، وهو مصدرٌ لا فعل له من لفظه[١٢] نادوا بالويل حين أيقنوا بعذاب الله[١٣] .

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٧ .
(٢) سورة النّبأ ٣٨.
(٣) سورة الفجر ٢٢.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٧.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٨ .
(٦) الجلالين.
(٧) لسان العرب : «غرل».
(٨) المعجم الوسيط : «غرل».
(٩) لسان العرب : «غرل».
(١٠) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٨ .
(١١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٨ .
(١٢) الجلالين.
(١٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٨ .

إلاّ أحصاها : أي ضبطها وحفظها[1] وعدّها وأثبتها[2] .

واذكر يا محمّد يوم القيامة الّذى نسيّر فيه الجبال عن الأرض، ونجعلها هباءً منثوراً ومنتشراً، وترى الأرض بارزةً لكلّ ناظر، عاريةً لكلّ عين، وحشرنا المؤمنين والكافرين فلم نغادر منهم أحداً فى باطن الأرض. وعُرض النّاس جميعاً على ربّك صفاً، وقيل لهم لقد جئتمونا كما خلقناكم أوّل مرّةٍ فُرادَى حفاةً عراةً غُرْلا. بل زعمتم أيها الكافرون المنكرون للبعث أن لن نجعل لكم يوم القيامة موعداً للبعث والنّشور ووقتاً للحساب. ووضع الله تعالى كتاب أعمال النّاس، فترى المجرمن الكافرين خائفين ومشفقين ممّا هو مدوّن فيه من سيّئاتهم، ويقولون يا ويلنا وهلاكنا، مال هذا الكتاب، وما شأن كتاب الأعمال هذا[3] لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة، ولا يترك ويبقى صغيرةً من ذنوبنا ولا كبيرة من سيّئاتنا إلاّ أحصاها وضبطها وعدّها عدّا. ووجدوا جميعاً ما عملوا حاضراً ومدوّناً فى كتب أعمالهم، ولا يظلم ربّك، أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، وأيّها الإنسان، أحداً من خلقه بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٧.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٨.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟
لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ
أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ
بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

وإذ قلنا للملائكة : واذكر يا محمّد إذ قلنا للملائكة[١] .

اسجدوا لآدم : أي سجود تشريفٍ وتكريمٍ وتعظيم[٢] .

إلاّ إبليس كان من الجنّ : أي خانه أصله فإنّه خُلِق من مارجٍ من نار[٣] وهو لسان النّار الّذى يكون فى طرفها إذا التهبت[٤] وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنّه قال : خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارجٍ من نار، وخلق آدم مما وصف لكم. فعند الحاجة نضح كلّ وعاءٍ بما فيه وخانه الطّبع عند الحاجة، وذلك أنّه كان قد توسّم بأفعال الملائكة وتشبّه بهم وتعبّد وتنسّك فلهذا دخل فى خطابهم وعصى بالمخالفة[٥] .

ففسق عن أمر ربّه : فخرج عن أمر ربّه وعدل عنه ومال[٦] فَسقَ فلان : خرج عن حَجْر الشّرع. وذلك من قولهم : فسق الرُّطَب إذا خرج عن قِشْره . وهو أعمّ من الكفر. والفِسق يقع بالقليل من الذّنوب وبالكثير، لكن تعورف فيما

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٨.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٦٩ وتفسير ابن كثير ٣/ ٨٩.
(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٨٨.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٠.

كان كثيراً. وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشّرع وأقرّ به ثمّ أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه[1].

بئس للظّالمين بدلا : بئسما استبدلوا بعبادة ربّهم إذ أطاعوا إبليس[2].

وما كنت متّخذ المضلّين عضدا : العَضُد ما بين المِرْفق إلى الكَتِف. ويقال : عَضَدْتُه أخذت عضده وقوّيته، ويستعار العضد للمعين كاليد[3] وهو من قولهم : فلانٌ يعضد فلاناً إذا كان يقوّيه ويعينه[4].

واذكر يا محمّد إذ قلنا للملائكة، بعد خلقنا آدم بشراً من طين، اسجدوا لآدم سجود تشريف وتكريم وتعظيم، بوضعكم جباهكم على الأرض، وكان ذلك معمولاً به حتّى بعثة خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين، محمّد بن عبد الله ﷺ. لقد سجد الملائكة أجمعون إلاّ إبليس كان من الجنّ الّذين خلقهم الله تعالى من نار السَّموم ومن مارجٍ من نار ومن لسانها الّذى يكون فى طرفها إذا التهبت. لقد فسق اللّعين عن أمر ربّه جلّ وعلا، وخرج عن طاعته، وعصاه عزّ وجلّ بباعث الاستكبار على الله تعالى والحسد لآدم عليه السّلام. ولمّا كان اللّعين هو المستكبر الحسود، وكذلك ذرّيّته، فإنّ السّياق فى أسلوب الإنكار يسأل ذرّيّة آدم عليه السّلام الّذين يطيعون اللّعين وذرّيّته ويعصون الله تعالى الّذى له الخَلَق والأمر جلّ وعلا وحده دون سواه : أفتتخذونه وذرّيّته أولياء تطيعونهم من دونى وهم لكم أعداء دائماً وأبدا. بئس الاستبدال بطاعة الله تعالى طاعة إبليس اللّعين. ويقرّر السّياق أن ربّ العزّة ما أشهد اللّعين وذرّيّته خلق السّماوات والأرض وما تمّت الاستعانة بهم، وما أشهدهم الله تعالى خلق أنفسهم بمعنى أنّ الله تعالى ما أشهد بعضهم خلق بعضهم الآخر، وما تمّت الاستعانة ببعضهم على خلق بعضهم الآخر، فكيف يطيعهم أولئك الّذين انفرد الله تعالى بخلقهم وخلق كلّ حيّ وشىء، وكيف

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «فسق» ٣٨٠.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧١.
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «عضد» ٣٣٧.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧١.

يعصون الله تعالى.

ويقرّر السّياق أخيراً أنّ الله تعالى الخالق البارىء المصوّر ما كان متّخذ المضلّين، من أمثال اللّعين وذرّيّته، عضدا وعونا.

وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

وجعلنا بينهم موبقا : وَبَقَ الرّجل يَبِقُ وبْقاً ووبوقاً ووبِق وَبْقاً واستوبق : هلك. والموبق مَفْعِل منه كالموعد مَفْعِل من وَعَد يَعِد، فالموبِق المَهْلِك، وأوبقه أهلكه[1] عن ابن عبّاس قوله : ﴿وجعلنا بينهم موبقا﴾ قال : مهلكا[2] وقال آخرون : هو اسم وادٍ فى جهنّم[3].

فظنّوا أنّهم مواقعوها : فعلموا أنّهم داخلوها[4] يقول : لم يجدوا من مواقعتها بدّاً لأنّ الله قد حتم عليهم ذلك[5].

ولم يجدوا عنها مصرفا : ولم يجدوا عن النّار الّتى رأوا معدلاً يعدلون عنها إلي[6] أي ليس لهم طريقٌ يعدل بهم عنها ولابدّ لهم منها[7].

واذكر يا محمّد يوم يقول الله تعالى يوم القيامة للمشركين نادوا شركائي الّذين زعمتم أنّهم يشفعون لكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعل الله تعالى بين المعبودين وعابديهم مهلكاً أو وادياً فى جهنّم تأكيداً لبعد الفريقين وخِذلان المعبودين

---

(١) انظر لسان العرب : «وبق».
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٢.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٣.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٣.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٣.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٣.
(٧) تفسير ابن كثير ٣/ ٩٠.

للعابدين.

ورأى المجرمون المشركون نار جهنّم فعلموا أنّهم داخلوها، وأيقنوا أنّهم واقعون فيها، ولم يجدوا عنها طريقاً يعدل بهم عنها ويصرفهم منها.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

ولقد صرّفنا فى هذا القرآن للنّاس : الصّرف ردّ الشّيء من حالة إلى حالة أو إبداله بغيره ، يقال : صرفته فانصرف. والتّصريف كالصّرف إلاّ فى التّكثير. وأكثر ما يقال فى صرف الشّيء من حالة إلى حالة ومن أمر إلى أمر، ومنه تصريف الرّياح، وهو صرفها من حال إلى حال، وتصريف الكلام[1].

من كلّ مَثَل : وعظناهم فيه من كلّ عظة، واحتججنا عليهم فيه بكلّ حجّة ليتذكّروا فينيبوا ويعتبروا فيتّعظوا وينزجروا عمّا هم عليه مقيمون من الشّرك بالله وعبادة الأوثان[2] والمَثَل عبارةٌ عن قولٍ فى شيءٍ يشبه قولاً فى شيءٍ آخر بينهما مشابهةٌ ليبيِّنَ أحدهما الآخر ويصوّرَه، نحو قولهم : الصَّيفَ ضيَّعْتِ اللَّبَن، فإنّ هذا القول يشبه قولك : أهملتَ وقت الإمكان أمْرَك. وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال فقال[3] : ﴿وتلك الأمثال نضربها للنّاس لعلّهم يتفكرون﴾ وفى أخرى[4] : ﴿وما يعقلها إلاّ العالمون﴾ والمَثَل يقال على وجهين، أحدهما : بمعنى المِثْل نحو شِبْه وشَبَه ونِقْض ونَقَض. قال بعضهم : وقد يعبَّر بهما عن وصف الشّيء نحو قوله[5] : ﴿مَثَلُ الجنّة الّتى وُعِد المتّقون﴾ والثّانى : عبارةٌ عن

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «صرف» ٢٧٩.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٣.
(٣) سورة الحشر ٢١.
(٤) سورة العنكبوت ٤٣.
(٥) سورة محمّد ﷺ ١٥.

المشابهة لغيره فى معنىً من المعانى، أيّ معنىً كان. وهو أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة. وذلك أنّ النِدّ يقال فيما يشاركَ فى الجوهر فقط. والشِّبْه يقال فيما يشارك فى الكيفيّة فقط. والمُساوى يقال فيما يشارك فى الكميّة فقط. والشّكل يقال فيما يشاركه فى القدر والمساحة فقط. والمِثْل عامٌّ فى جميع ذلك. ولهذا لمّا أراد الله تعالى نفى التّشبيه مِنْ كلّ وجهٍ خصَّه بالذّكر فقال[1] : ﴿ليس كمثله شىء﴾[2] وقد يكون المَثَل بمعنى العِبرة، ومنه قوله عزّ وجلّ[3] : ﴿فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين﴾ فمعنى السَّلَف أنّا جعلناهم متقدّمين يتّعظ بهم الغابرون. ومعنى قوله : ومَثَلاً، أي عبرة يعتبر بها المتأخّرون. ويكون المَثَل بمعنى الآية. قال الله عزّ وجلّ فُي صفة عيسى، على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام[4] : ﴿وجعلناه مَثَلاً لبنى إسرائيل﴾ أي آيةً تدلّ على نبوّته[5] .

وكان الإنسان أكثر شىء جدلاً : وكان الإنسان أكثر شىءٍ مِراءً وخصومة. لا ينيب لحقّ ولا ينزجر لموعظة[6] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة والجلال قد صرّف فى هذا القرآن المجيد للنّاس من كلّ مَثَل، وضَرَب الأمثال، ونوّع الأساليب، وقلّب المعاني على وجوهها المختلفة، ووضّح الآيات، وصرّف المواعظ. ولكون القرآن الكريم نَسيجَ وَحْده، مبنىً ومعنى، نُزّلت صنوف القول فى القرآن الكريم منزلة الأمثال السّائرة، والحِكَم الطّائرة. وعلى الرّغم من كلّ هذه النّعوت لتصريف الأقوال فى القرآن الكريم فإنّ جنس الإنسان الكفور أكثر شىءٍ جدلاً ومخاصمةً ومعارضةً للحقّ بالباطل.

---

(١) سورة الشّورى ١١.
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «مثل» ٤٦٢.
(٣) سورة الزّخرف ٥٦.
(٤) سورة الزخرف ٥٩.
(٥) لسان العرب : «مثل».
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٣.

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ
إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ
ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾

إلاّ أن تأتيهم سنّة الأوّلين : سنّتنا فيهم وهي الإهلاك المقدّر عليهم(١) وسنّتنا فى أمثالهم من الأمم المكذّبة رسلها قَبلْهم(٢) .

أو يأتيهم العذاب قبلا : مقابلةً وعِيانا(٣) .

وما منع النّاس أن يؤمنوا، ومشركى مكّة ومن شاكلهم أن يسلموا، إذ جاءهم الهدى من الله تعالى، بإرسال خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين، عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه، وإنزال آخر الكتب السماوية وأشرفها عليه ﷺ وما منعهم أن يستغفروا ربّهم جلّ وعلا إلاّ نفوسهم المعوجّة الّتى تحملهم على الإيمان فى حالٍ واحدة، وذلك حينما يأتيهم العذاب كما أتى المكذبين السّابقين، وتجيئهم سنّة الأوّلين الّذين آمنوا حينما رأوا العذاب فلم ينفعهم إيمانهم. وكذلك ما منع النّاس من الإيمان إلاّ عقولهم المعطّلة عن العمل الصّحيح إلى الحدّ الّذى انتهى معه سفههم وحمقهم إلى طلب العذاب الأليم أن يروه عِياناً، بدلاً من سؤال الله تعالى الهداية، وذلك على غرار كفّار مكّة الّذين جاء فى حقّهم قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الأنفال المدنيّة(٤) : ﴿وإذ قالوا اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم﴾ !

---

(١) الجلالين.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٣.
(٣) الجلالين.
(٤) الآية ٣٢.

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ
لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

ليدحضوا به الحقّ : ليبطلوا به الحقّ ويزيلوه ويذهبوا به. يقال منه : دحض الشّيء إذا زال وذهب. وأدحضته أنا إذا أذهبته وأبطلته[1] .

هزواً : سخرية[2] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة والجلال ما يرسل المرسلين إلاّ مبشّرين المؤمنين بالجنّة ومنذرين الكافرين بالنّار. ويجادل الّذين كفروا ويخاصمون الحقّ بالباطل ليدحضوا بباطلهم الحقّ ويبطلوا بزيفهم وحيفهم الصدق والعدل. وراء ذلك اتّخذ الكافرون آيات الله تعالى البيّنات موضع هزءٍ وسخريةٍ منهم.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ
وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

ونسي ما قدّمت يداه : ونسي ما أسلف من الذّنوب المهلكة فلم يتب منها ولم يُنب[3] .

أكنّةً أن يفقهوه : أغطيةً لئلاّ يفقهوه، لأنّ المعنى أن يفقهوا ما ذُكّروا به[4] .

وفى آذانهم وقرا : وفى آذانهم ثِقَلاً لئلاّ يسمعوه[5] .

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٤.
(٢) الجلالين.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٤.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٤.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٤.

تقرّر الآية الكريمة أنّه لا أحد أظلم ممّن ذكرّ بآيات ربّه جلّ وعلا الّتى اشتمل عليها القرآن الكريم فأعرض عنها وصدّ الآخرين عن سواء السّبيل، ووراء ذلك هو نَسِي ما قدّمت يداه من سوء، وما ارتكبه من ذنوبٍ وآثام.

ولمّا كان الكافرون قد انصرفوا حسّاً ومعنى، جسداً وقلباً عن القرآن الكريم، فقد زاد الله تعالى انصراف قلوبهم التى لا تفقه انصرافاً، وزاد آذانهم الّتى لا تسمع القرآن الكريم سماع تدبّر ولا تفهمه صمماً إلى صممها وثقلاً إلى ثقلها. وهكذا جعل تعالى على قلوب القوم أغطيةً، لئلاّ يفقهوا القرآن الكريم ويتدبّروه، ثمرةً نكدةً لانصرافهم، وفى آذانهم ثقلاً، لئلاّ يسمعوا القرآن الكريم أصلاً، ثمرةً نكدةً لإعراضهم عن السّماع. وإن تدعهم أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم إلى الهدى فلن يستجيبوا للهدى مطلقا.

وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

موئلا : عن ابن عبّاس : ملجأ[1] وعن قتادة : وليّاً ولا ملجأ[2].

موعدا : ميقاتاً وأجلا[3].

وربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم الغفور لذنوب عباده، ذو الرّحمة الواسعة بهم، لو يؤاخذهم بما كسبوا وعملوا من سيّئاتٍ لعجّل لهم العذاب فى

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٥.

(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٥.

(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٥.

الحياة الـدّنيا. بل لهـم موعدٌ يـوم القـيامة لن يجدوا مـن دونه ملجـأً يلجأون إليـه ويفرّون.

وتلك القرى السّـابقة والأمم الماضية أهلكنـاهم لّما ظلموا بتكذيب رسل الله تعالى إليهم وجعلنا لمهلكهم موعداً، ولهلاكـهم ميقاتاً وزمناً لا يستأخرون عنه ولا يستقدمون. فعلى كـفّار مكّة ومن شاكلهم فى كلّ زمانٍ ومكانٍ أن يأخذوا حذرهم وأن يعودوا إلى جادّة الصّواب، وإلاّ كان عذابهم أليماً فى الأولى والآخرة.

(٧)

« قصّة موسى عليه السلام والخَضِر »

الآيات (٦٠-٧٤)

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ
أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾

وإذ قال موسى لفتاه : واذكر يا محمّد إذ قال موسى بن مران لفتاه[١] يوشع ابن نون[٢] كان يتبعه ويخدمه ويأخذ منه العلم[٣] .

لا أبرح : لا أزال أسير[٤] ومثله لا أزال، لأنّ بَرِح وزال اقتضيا معنى النّفي. ولا للنّفي. والنّفيان يحصل من اجتماعهما إثبات. وعلى ذلك قوله عزّ وجلّ[٥] : ﴿لن نبرح عليه عاكفين﴾ وقال تعالى : ﴿لا أبرح حتّى أبلغ مجمع البحرين﴾[٦] .

حتّى أبلغ مجمع البحرين : أصل البحر كلّ مكان واسعٍ جامعٍ للماء الكثير[٧] والبحر : الماء الكثير، مِلْحاً كان أو عذباً، سمّي بذلك لعمقه واتّساعه.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٦.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٩٢.
(٣) الجلالين.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٦.
(٥) سورة طه ٩١.
(٦) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «برح» ٤٢.
(٧) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «بحر».

وقد غَلَب على المِلْح حتّى قلّ فى العَذْب. وسَمّي البحر بحراً لسعته وانبساطه، ومنه قولهم : إنّ فلاناً لبحر أي واسع المعروف. فعلى هذا يكون البحر للمِلْح والعذب. وفى الحديث : أَبَى ذلك البحرُ ابنُ عبّاس، سمّي بحراً لسعة علمه وكثرته[1] وقيل :عنى بقوله : ﴿مجمع البحرين﴾ اجتماع بحر فارس والرّوم. والمجمع مصدر من قولهم : جمع يجمع[2] وقيل غير ذلك.

وإنّى لأتساءل : أين هو الموضع الّذى يلتقى فيه الخليج العربيّ والبحر الأبيض المتوسّط وهو المراد ببحر الرّوم؟ الجواب أنّهما لا يلتقيان مطلقاً. وبناءً على ذلك نحن بحاجةٍ إلى أن نتدبّر ملياً رأي المفسرّين فى مجموعهم الّذين يذهبون إلى أنّ مجمع البحرين المكان الّذى يلتقى عنده كلٌّ من الخليج العربيّ والبحر الأبيض المتوسّط. ومادام البحر يعنى كلاً من الماء المِلْح أي البحر، والماء العذب أي النّهر، فليس ثمّة ما يمنع أن يكون المراد بمجمع البحرين المكان المعروف لموسى عليه السّلام والّذى يلتقى فيه نهرٌ عذبٌ متدفّق بماءٍ مِلْح متحيّر، أو الّذى يلتقى فيه عُرْفاً واصطلاحاً بحران ماؤهما مِلْحٌ. ونحن إلى الرّأي الأوّل أشدّ ميلاً. والله تعالى أعلم بالمراد.

أو أمضي حُقُبا : أو أسير زماناً ودهراً، وهو واحدٌ ويجمع كثيره وقليله أحقاب[3] والحُقْب بسكون القاف والحُقُب بضمّها : الدّهر. والأحقاب الدّهور[4].

وبشأن أسباب نزول الآيات الكريمات المتعلّقات بموسى عليه السّلام والخَضِر عليه السّلام وملابسات هذه القصّة من سورة الكهف جاءت فى نَسَق فى صحيح البخارى ثلاثة أحاديث تحمل فى فتح البارى الأرقام ٤٧٢٥ و٤٧٢٦و٤٧٢٧ وإليك أوّل الأحاديث الثلاثة[5] «حدثنا الحميدي حدّثنا سفيان حدّثنا عمرو بن دينار قال :

---

(١) لسان العرب : «بحر».

(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٦.

(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٦.

(٤) انظر لسان العرب : «حقب».

(٥) فتح البارى بشرح صحيح الإمام البخارى لإبن حجر العسقلانى ٨/ ٤٠٩.

أخبرنى سعيد بن جبير قال : قلت لابن عبّاس إنّ نوفاً البِكالي[1] يزعم أنّ موسى صاحب الخَضِر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل. فقال ابن عبّاس : كذب عدوُّ الله. حدّثنى أبيّ بن كعب أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول : إنّ موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فسُئل : أيُّ النّاس أعلم؟ فقال: أنا. فَعَتَب الله عليه[2] إذ لم يردّ العلم إليه. فأوحى الله إليه : أنّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى : يارب فكيف لى به؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله فى مِكْتل[3] فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمّ[4] فأخذ حوتاً فجعله فى مِكْتل ثمّ انطلق. وانطلق معه بفتاه يُوشَعَ بن نون، حتّى إذ أتيا الصّخرة وضعا رءوسهما فناما. واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر، فاتّخذ سبيله فى البحر سَرَبا[5] وأمسك الله عن الحوت جِرْية الماء[6] فصار عليه مثل الطّاق. فلمّا استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت. فانطلقا بقيّة يومهما وليلتهما، حتّى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَبا. قال : ولم يجد موسى النَّصَب حتّى جاوزا المكان الّذى أمر الله به. فقال له فتاه : أرأيت إذ أوينا إلى الصّخرةفإنّى نسيت الحوت وما أنسانيه إلاّ الشّيطان أن أذكره، واتّخذ سبيله فى البحر عجبا. قال : فكان للحوت سَرَبا، ولموسى ولفتاه عجبا. فقال موسى : ذلك ما كنّا نبغى، فارتدّا على آثارهما قَصصا. قال : رجعا يقصّان آثارهما حتّى

---

(١) جاء فى الحديث رقم ٤٧٢٦ فتح البارى ٨/ ٤١١ : «بالكوفة رجلٌ قاصٌّ يقال له نَوْف» والقاصّ بتشديد المهملة الّذى يقصّ على النّاس الأخبار من المواعظ وغيرها. فتح البارى ٨/ ٤١٢.

(٢) يقال :عَتَبَ عليه إذا أنكر عليه شيئاً من فعْله.

(٣) المكْتل : زنبيل (بكسر الزّاي) يُعْمَل منَ الخُوص بضمّ الخاء وهو ورق النّخل.وجاء فى الحديث رقم ٤٧٢٦ : «خذ نُوناً ميّتاً حيث يُنْفَخ فيه الرّوح». والنّون : الحوت.

(٤) ثَمّ : اسمٌ يشار به إلى المكان البعيد بمعنى هناك، وهو ظرفٌ لا يتصرّف.

(٥) سربا : أي مسلكاً ومذهباً يسرب فيه. فتح البارى ٨/ ٤١٢.

(٦) فى رواية أبى إسحاق عند مسلم : «فاضطرب الحوت فى الماء فجعل لا يلتئم عليه، صار مثل الكوّة» فتح البارى ٨/ ٤١٢.

انتهيا إلى الصّخرة فإذا رجلٌ مسجّىً ثوبا، فسلّم عليه موسى فقال الخَضِر : وأنّى بأرضك السّلام [1] قال : أنا موسى. قال : موسى بنى إسرائيل؟ قال : نعم، أتيتك لتعلّمنى ممّا علّمت رشدا. قال : إنّك لن تستطيع معى صبرا. ياموسى إنّى على علم مِنْ علم الله علّمنيه لا تعلمه أنت. وأنت على علمٍ من علم الله علّمكّ الله لا أعلمه. فقال موسى : ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمرا. فقال له الخَضِر : فإن اتّبعتنى فلا تسألنى عن شيءٍ حتّى أحدث لك منه ذكرا. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر. فمرّت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم فعرفوا الخَضِر فحملوه بغير نَوْل[2] فلمّا ركبا السّفينة لم يفجأ إلاّ والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السّفينة بالقَدوم[3] فقال له موسى : قومٌ حملونا بغير نَوْل، عمدت إلى سفينتهم فَخَرقْتَها لتُغرق أهلها، لقد جئت شيئاً إمرا. قال : ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبرا؟ قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا تُرْهقنى من أمرى عسرا. قال: وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولى من موسى نسيانا[4] قال : وجاء عصفورٌ فوقع على حرف السّفينة فنقر فى البحر نَقْرَةً فقال له الخَضِر : ما علمى وعلمك مِن علم الله إلاّ مِثْلُ ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثمّ خرجا من السّفينة، فبينما هما يمشيان على السّاحل إذ أبصر الخَضِر غلاماً يلعب مع الغِلمان، فأخذ الخَضِر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله. فقال له موسى : أقتلت نفساً زاكيةً بغير نفس؟ لقد جئت شيئاً نُكْرا. قال : ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبرا؟ قال: وهذه أشدّ من الأولى. قال : إن سألتك عن شيءٍ بعدها فلا تصاحبنى، قد بلغت من لدنّى عذرا. فانطلقا حتّى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما

---

(١) وأنّى بأرضك السّلام : هي بمعنى أين وكيف. وهو استفهام استبعاد يدلّ على أنّ أهل تلك الأرض لم يكونوا إذ ذاك مسلمين . فتح البارى ٨/ ٤١٨.

(٢) النّول : بفتح النّون وسكون الواو وهو الأجرة . فتح البارى ٨/ ٤١٨. وتفسير ابن كثير ٣/ ٩٧.

(٣) القَدوم : آلةٌ للنّجْر والنّحت. وجاء فى فتح البارى ٨/ ٤١٩ : «وفى رواية أبى العالية : «فخرق السّفينة فلم يره أحدٌ إلاّ موسى، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين ذلك».

(٤) جاء فى الحديث رقم ٤٧٢٦ فتح البارى ٨/ ٤١١ : «كانت الأولى نسيانا، والوسطى شرطاً والثّالثة عمدا».

فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ ـ قال : مائل ـ فقام الخضر فأقامه بيده. فقال موسى : قومٌ أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيّفونا. لو شئت لاتّخذت عليه أجرا. قال هذا فراق بينى وبينك، إلى قوله، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا. فقال رسول الله ﷺ : وَدِدْنا أنّ موسى كان صبر حتّى يقص الله علينا من خبرهما».

ومعنى الآية الكريمة من سورة الكهف الكريمة : واذكر يا محمّد إذ قال موسى بن عمران عليه السّلام لفتاه يوشع بن نون عليه السّلام لا أزال أسير حتّى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا وأواصل السّير زماناً ودهراً.

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

فلمّا بلغا مجمع بينهما : فلمّا بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين [١].

فاتّخذ سبيله فى البحر سربا : يعنى أنّ الحوت اتّخذ طريقه الّذى سلكه فى البحر سربا. ويعنى بالسَّرَب المسلك والمذهب يسرُب فيه، يذهب فيه ويسلكه[٢].

لما بلغ موسى ويوشع عليهما السّلام مجمع البحرين نسيا حوتهما الّذى أعاد الله تعالى الحياة إليه، فقفز من المِكْتل، وسقط فى الماء[٣] الّذى لم يلتئم عليه بل صار مثل الكوّة والطّاق بإذن الله تعالى على نحو ما تبيّن من الحديث فى الصحيحين، وبذلك اتّخذ الحوت سبيله فى البحر مسلكاً يسلكه ومذهباً يذهب فيه وطريقاً يعبره.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٦.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٧.
(٣) انظر فتح البارى ٨/ ٤١٥.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾

فلما جاوزا : فلمّا جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين[١] .

قال لفتاه : قال موسى لفتاه يوشع[٢] .

آتنا غداءنا : جئنا بغدائنا وأعطناه [٣]والغداء ما يؤكل أوّل النّهار[٤] .

لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا : لقد لقينا من سفرنا هذا عناءً وتعبا. وقال ذلك موسى فيما ذكر بعد ما جاوز الصّخرة حين ألقي عليه الجوع ليتذكّر الحوت ويرجع إلى موضع مطلبه[٥] وجاء فى فتح البارى[٦] : «وفى رواية سفيان . . . . . ولم يجد موسى النّصَب حتّى جاوز المكان الّذى أمر الله به».

فلما جاوز موسى ويوشع عليهما السّلام مجمع البحرين قال موسى لفتاه يوشع آتنا طعامنا وأعطنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا عناءً وتعبا.

قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾

قال أرأيت : الهمزة للاستفهام التّعجّبى. رأيت : فعل ماض وفاعله.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٧.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٧.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٧.
(٤) الجلالين.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٨.
(٦) ٨/ ٤١٦.

والمفعول محذوف أي : أرأيت حالنا [1].

وما أنسانيه إلاّ الشّيطان : الواو : اعتراضيّة. ما : نافية . أنسانيه : فعل ماض مبنّى على الفتح المقدّر. والنّون : للوقاية. والياء : ضمير مفعول به أوّل. والهاء : مفعول به ثان[2] .

واتّخذ سبيله فى البحر عجبا : سبق أن جاء فى الحديث من صحيح البخارى[3] : «قال : فكان للحوت سَرَبا، ولموسى ولفتاه عجبا» والمعنى أنّ الحوت اتّخذ سبيله فى البحر سرباً وطريقاً ومسلكا، وأنّ الحوت حينما اتّخذ سبيله فى البحر سرباً كان ذلك شيئاً عجيباً فعلاً فى حقّ موسى ويوشع عليهما السّلام فبعد أن كان الحوت ميتاً عادت الحياة إليه بإذن الله تعالى، واتّخذ سبيله فى البحر عجباً لموسى ويوشع عليهما السّلام.

إنّ يوشع فتى موسى عليه السّلام يقول له : أرأيت حالنا إذ أوينا إلى الصخرة عند مجمع البحرين فإنّى نسيت الحوت ونسيت أن أخبرك بحاله، وما أنساني الحوت إلاّ الشّيطان أن أذكره. وكان اتّخاذ الحوت سبيله فى البحر عجباً لموسى وفتاه.

---

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ١٧٩.

(٢) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ١٧٩.

(٣) الحديث رقم ٤٧٢٥ فتح البارى ٨/ ٤٠٩

قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ
عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ
عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

ذلك : نسيانك الحوت[1] .

ماكنّا نبغ : الّذى كنّا نلتمس ونطلب، لأنّ موسى كان قيل له : صاحبك الّذى تريده حيث تنسى الحوت[2] .

فارتدّا على آثارهما قصصا : فرجعا فى الطّريق الّذى كانا قطعاه ناكصين على أدبارهما يقصّان آثارهما الّتى كانا سلكاها[3] .

آتيناه رحمةً من عندنا : وهبنا له رحمةً من عندنا[4] .

رُشْدا : ما هو رشادٌ إلى الحقّ ودليلٌ على هدى[5] .

قال إنّك لن تستطيع معي صبرا : يقول تعالى ذكره : قال العالم : إنّك لن تطيق الصّبر معى وذلك أنّى أعمل بباطن علمٍ علّمنيه الله، ولا علم لك إلاّ بالظّاهر من الأمور، فلا تصبر على ما تري من الأفعال[6] .

وكيف تصبر على ما تحط به خُبْرا : على ماتحط به علما[1] وكيف تصبر

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٨.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٨.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٨.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٧٩.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٣.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٣ وانظر بشأن الخضر عليه السّلام ـ مثلا ـ لسان العرب «خضر».

على ما لم تطّلع على حكمته ومصلحته الباطنة الّتى اطلعت أنا عليها دونك[٢] .

حتّى أحدث لك منه ذكرا : حتّى أُحْدِثَ أنا لك ممّا ترى من الأفعال الّتى أفعلها الّتى تستنكرها، أذكرها لك، وأبيّن لكَ شأنها، وأبتدئك الخبر عنها[٣] عن ابن عبّاس : حتّى أبيّن لك شأنه[٤] .

قال موسى عليه السّلام لفتاه : نسيانك الحوت هو الّذى كنّا نبغى ونطلب، لأنّ العالِم الّذى نريده سوف نجده بإذن الله تعالى فى الموضع الّذى ننسى فيه الحوت. فعاد موسى وفتاه أدراجهما وعلى حافرتهما يقصّان أثرهما ويهتديان بمعالم الطّريق الّتى سلكاها. فوجد موسى وفتاه، فى الموضع الّذى أحيا الله تعالى فيه الحوت فقفز من المِكْتل إلى الماء، عبداً من عباده جلّ وعلا الصّالحين، أعطاه الله تعالى حظّاً موفوراً من رحمته عزّ وجلّ الواسعة، وخصّه من لدنه عزّ وجلّ بعلمٍ لدنّيّ غير مكتَسَب. وبعد أن سلّم موسى عليه السّلام على ذلك الرّجل، وهو الخَضِر عليه السّلام، وردّ عليه السّلام، وتعارفا، قال موسى عليه السّلام للخضر عليه السّلام فى أدب جمّ ينبغى على طالب العلم أن يتحلّى به، وبخاصّة مع أساتذته : هل أتبعك على أن تعلّمني ممّا علّمك الله تعالى من رشادٍ إلى الحقّ، وهل فى إمكانى أن أكون تابعك وتكون قائدى على أنّ تعلّمني ممّا خصّك الله تعالى به من علم لدنّي، كي أزداد بإذن الله تعالى نوراً وهدى. قال الخضر عليه السّلام فى اسلوب التّأكيد : إنك يا موسى لن تستطيع معي صبراً. لأنّ الله تعالى منحني علم الباطن ومنحك علم الظّاهر، فكيف تصبر على شيءٍ أنت لم تحط به خبراً، ولم تسبُرْ له غورا، لأنّك سوف تحكم على تصرّفاتى بظاهرها الّذى يبدو ، ولا تدرك باطنها الّذى أعرفه ولا تعرفه. قال موسى عليه السّلام للخضر عليه السّلام : ستجدنى إن شاء الله تعالى صابرا مالكاً زمام نفسى ولا أعصى لك أمراً.

---

(١) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٣.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٩٦.

(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٣.

(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٣.

وكان من الخضر الشّرط التّالى : إن اتّبعتنى يا موسى فلا تسألنى عن شيءٍ أقوم به غابت عنك حكمته حتّى أحدث لك أنا منه ذكراً، وحتّى أفاتحك يا موسى أنا بشأنه، وأبادر من ذاتى بذكر السّبب وراء ما قمت به، والحكمة المستترة خلفه.

ووافق موسى عليه السّلام على ذلك الشّرط.

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾

فانطلقا : فانطلق موسى والعالم[١] يمشيان على ساحل البحر[٢] يطلبان سفينةً يركبانها[٣].

حتّى إذا ركبا فى السّفينة خرقها : سبق أن جاء فى الحديث الّذى رواه البخارى : «فلمّا ركبا فى السّفينة لم يفجأ إلاّ والخَضِر قد قلع لوحاً من ألواح السّفينة بالقَدوم»[٤].

لقد جئت شيئاً إمرا : لقد جئت شيئاً عظيماً وفعلت فعلاً منكرا[٥] والإمر فى كلام العرب الدّاهية[٦].

قال لا تؤاخذنى بما نسيت : سبق أن أومأنا إلى ما جاء فى الحديث الّذى رواه البخارى عن ابن عبّاسٍ عن أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ قال : كانت

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٤.
(٢) الجلالين.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٤.
(٤) فتح البارى ٨/ ٤٠٩ حديث رقم ٤٧٢٥.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٤.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٤.

الأولى من موسى نسيانا[1] .

ولا ترهقنى من أمرى عسرا : لا تضيّق عليّ أمـرى معك وصحبتى إيّاك[2] يقال : رَهِقَه الأمر : غشِيَه بقهر، ويقال : رَهِقْتُه وأَرْهَقْتُه[3] .

فانطلق موسى عـليه السّلام والعالِم يسيـران على ساحل البحر يبـحثان عن سفينة تحملهما إلى حيث يريدان. حتّى إذا ركبا فى السّفينة خرق العالم السّفينة بأن قلع لَوحـاً من ألواحها بالـقدوم على حين غفـلة من كلّ ركّاب السّـفينة باستـثناء موسى عليه السّلام الّذى انفجر سائلاً فى إنكار : أخرقت السّفينة لتُغْرِق أهلها فى أعماق البحر! لقد جئت أمراً عظيماً وشيئاً شنيعاً. ومن أسباب اشتداد الإنكار على العالِم أنّ أصحاب السّفينة حملوهما بدون أجرٍ إكراماً للخضر الّذى كانوا يعرفونه.

قال الخَضِر : ألم أقل إنّك يا موسى لن تستطيع معي صبراً؟.

قال موسى للخضر : لا تؤاخذنى بسبب نـسياني الشّرط الّذى اشترطته عليّ وقبلته، ولا تحملنى على جهة الإلزام والقهـر، مشقّةً من أمرى، فى أثناء مرافقتى لك واتّباعك .

---

(١) فتح البارى ٨/ ٤١١ حديث رقم ٤٧٢٦ وتفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٥ وتفسير ابن كثير ٣/ ٩٧.

(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٥.

(٣) مفردات الراغب الأصفهانى : «رهق» ٢٠٤.

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

فانطلقا : بعد خروجهما من السّفينة يمشيان[١] .

حتّي إذا لقيا غلاماً فقتله : روي أنّه كان يلعب مع الغلمان فى قريةٍ من القرى، وأنّه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأضوأهم فقتله. وروي أنّه احتزّ رأسه، وقيل رضخه بحجر، وفى رواية اقتلعه بيده. والله أعلم[٢].

زكيّة : طاهرةً لم تبلغ حدّ التّكليف[٣] .

بغير نفس : بغير قصاصٍ بنفسٍ قتلت فلزمها القتل قَوَداً بها [٤].

لقد جئت شيئاً نُكرا : لقد جئت بشيءٍ منكر، وفعلت فعلاً غير معروف[٥] عن قتادة : النُّكر أشدّ من الإمر [٦].

بعد أن اعتذر موسى عليه السّلام للعالِم عن نسيانه، وبعد أن طلب منه ألاّ يشقّ عليه، انطلقا إثر مغادرتهماالسّفينة، وظلاّ يسيران حتّى إذا لقيا فجأة غلاماً يفوق أترابه جمالاً ووضاءه عمد إليه العالم فقتله! قال موسي عليه السّلام للعالم فى أسلوب الإنكار الأشدّ منه فى المرّة الأولى : أقتلت نفساً طاهرةً بريئةً لم تبلغ حدّ التكليف ولم تقتل نفساً فتقتصّ منها. لقد جئت أمراً ينكره كلّ ذى لبّ، وفعلت فعلاً غير معروفٍ ولا مقبولٍ لكلّ ذى عقل .

---

(١) الجلالين.
(٩٢ تفسير ابن كثير ٣/ ٩٧.
(٣) الجلالين.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٥.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٥.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٨٥.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله ربّ العالمين.

مكّة المكرّمة

مساء يوم الثلاثاء ٩/ ٢/ ١٤١٧هـ

الموافق ٢٥/ ٦/ ١٩٩٦م

فهرست الموضوعات

الموضـــــــوع	رقم الآيات	رقم الصفحة
المقدّمـــة		٧
أوّلاً : سورة الإسراء		٩
بين يدي التّفسير		٢٣
التّفســـير		٤٧-٢٠٥
١ ـ سبحان الّذى أسرى الملائكة بعبده محمّد ﷺ من المسجد الحرام إلى المســجـــد الأقـــصى	١	٤٩
٢ ـ إن عاد بنو إسـرائيل إلى الإفساد بعد المرّتين المذكـورتين فى التّوراة الموحى بهـــا إلى مـــوسى عليـه الـسّـلام عـاد الانـتـقـــام منهم	٢ ـ ٨	٥٩
٣ ـ القرآن الكريم يهدى للطّريقة الّتى هي أقوم ، وكلّ إنسان مسئولٌ عن نفسه، وسيثاب المحسن ويعاقب المسىء، فاستبقوا الخيرات	٩ ـ ٢١	٧٧
٤ ـ آيات الحكمـة	٢٢ ـ ٣٩	٩٧
٥ ـ تسـبّح السّمـاوات والأرض ومن فيـهنّ لله تعالى الواحـد الّذى يزيد المنصرفين عن القرآن الكريم الظّالمين عمىً وصمماً	٤٠ ـ ٤٨	١٢١
٦ ـ منكرو البعث سـوف يستجيبـون بحمد الله تعالى لدعـوته جلّ وعلا لهم يوم القيامة، وادعو الله على بصـــيرة، وكما يكون التّفاضل فى الأولى يـكـــون فـى الآخـــرة	٤٩ ـ ٥٧	١٣١
٧ ـ كلّ القرى الظّالمة سـوف يهلكها الله تعالى أو يعذّبهـا، فعلى أهل مكّة أن يكتفوا بمعجزة القرآن، ويطيـعوا الرّحمن، ويعصوا الشّيطان	٥٨ ـ ٦٥	١٤١
٨ ـ الانسان الشّكور يثاب فى الأولى والآخـرة، والانسان الكفور يعاقب فى الأولى والآخـــرة	٦٦ ـ ٧٢	١٥٣
٩ ـ أنواعٌ من عـــمى الضّـــالّين، وأنواعٌ مـن وســائل تثـبـيـت المصطفى ﷺ والمؤمنين	٧٣ ـ ٨٨	١٦٣
١٠ ـ إصرار الكافرين على عدم إدراك الحكمة من كون الرّسول واحداً من البـشـــر، وعلى الضّـــلال وإنكار الـبـعث	٨٩-١٠٠	١٨١
١١ ـ نصـر الله تعـالىٰ موسى علـيه السّـلام دليلٌ على نصـر الله تعـالى محمّداً ﷺ، بدليل دخول أهل الكتاب فى الإسلام، فادعوا الله واحمدوه وكبّروه	١٠١ ـ ١١١	١٩٣

فهرست الموضوعات

الموضـــــوع	رقم الآيات	رقم الصفحة
ثانياً : سورة الكهف حتّى نهاية الجزء الخامس عشر		٢٠٧
بين يدي التّفسير		٢١٧
التّفســـير		٢٢٣-٣٣٠
١ ـ الحمد لله الّذى أنزل الكتاب على عبده ليبشّر المؤمنين بالجنّة وينذر الكافرين بالنّار، وليس على الرّسول إلاّ البلاغ	١ ـ ٨	٢٣٥
٢ ـ قصّة أصحاب الكهف العجيبة رمزٌ للموت والبعث	٩ ـ ١٢	٢٤٣
٣ ـ قصّة أصحاب الكهف، تفصيلٌ بعد إجمال	١٣ ـ ٢٦	٢٥١
٤ ـ أُتل القرآن الكريم، واصبر على ملازمة الفقراء، وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين	٢٧ ـ ٣١	٢٧٩
٥ ـ الهلاك يحيط بجنّة الكافر الفَرِح المختال الفخور	٣٢ ـ ٤٤	٢٨٧
٦ ـ الدّنيا فانية، والآخرة باقية، فينبغى عمل الصّالحات رجاء حسن الثّواب والنّجاة من العذاب	٤٥ ـ ٥٩	٣٠١
٧ ـ قصّة موسى عليه السّلام والخَضِر	٦٠ ـ ٧٤	٣١٧